السلطان الشهيد

بقلم الاستاذ اورخان محمد علي

كان السلطان مراد الاول (١٣٢٦ - ١٣٨٨م) سلطاناً غازياً ، صرف سنوات حكمه الطويل (٣٠ سنة) في الفتوحات ووسع مملكته التي كانت مساحتها عند استلامه الحكم تبلغ ١٠٠,٠٠٠ كم٢ تقريباً الى مملكة مساحتها ٤٠٠,٠٠٠كم٢ تقريباً اي وسعها اربعة اضعاف ، لذا يعد اول سلطان في الدولة العثمانية ، اذ ان والده (اورخان) وجده (عثمان) كانا يلقبان بـ (بك).

ولما كانت معظم فتوحات هذا السلطان في قارة اوربا ، فقد اجتاحت الدول الاوربية موجة من الخوف من هذه القوة المتعاظمة لهذه الدولة الفتية ، فعقدت بلغاريا والصرب وبولندا والمجر حلفاً بينهم وهيأوا جيشاً مشتركاً ضخماً وضعوه تحت قيادة ملك المجر "لايوش" لاخراج المسلمين من قارة اوروبا ، وابعادهم عنها.

كان السلطان مراد في "بورصة" عاصمة مملكته مع معظم جيشه ، ولكن احد قواده وهو "حاجي إلْ بي" الذي كان على رأس جيش قوامه عشرة الاف جندي قريباً من الجيش الصليبي المتقدم نحو حدود الدولة العثمانية ، فتوجه اليه ولاقاه في الطريق.

كان الجيش الصليبي اضعاف الجيش العثماني ، ولكنه لم يكن يتوقع هجوماً عليه ، اذ لم يكن على علم بوجود جيش عثماني صغير بالقرب منه ، لذا فقد استفاد القائد العثماني من عنصر المفاجأة وهجم على معسكر الجيش الصليبي هجوماً صاعقاً فشتتهم ودحرهم.

نزل خبر انتصار المسلمين في هذه المعركة نزول الصاعقة على اوروبا ، وتبخرت امالهم في التخلص من العثمانيين بسهولة. ولكن البابا "أربان الخامس" دعا كل دول اوروبا لاعداد حملة صليبية اضخم واكبر لتحقيق دفع المسلمين من قارة اوروبا. ولكن الخوف والرعب السائد في اوروبا عقب هذه المعركة كان كبيراً الى درجة انه لم يستجب اي ملك من ملوك اوروبا لهذا النداء.

ولكن العثمانيين استمروا في فتوحاتهم في "مقدونيا" ، فزادت المخاوف هناك ، واضطر "لازار كرابلينو فيج" ملك الصرب الى توقيع معاهدة مع السلطان يدفع بموجبها ضريبة سنوية كبيرة للدولة العثمانية ، كما دخل "شيشمان" ملك البلغار تحت العثمانية واهدى اخته "ماريا" للسلطان. ولكنه ندم بعد ذلك على هذا وقال: "لقد خنت دماء المسيحيين التي اريقت كالسيل".

٣٦

لذا لم يتردد في الدخول الى حلف سرّي ضد الدولة العثمانية ، هذا الحلف الذي انشأه "لازار" ملك الصرب وانضم اليه "توارتكو الاول" ملك "بوصنة" ايضاً. ثم توسع هذا الحلف فدخل فيه الالبانيون والبولنديون والبوشناق. وجمعوا جيشاً ضخماً وضعوه تحت قيادة "لازار". كان هذا الجيش ضخماً الى درجة ساد شعار لو ان السماء وقعت لتلقيناها باسنة حرابنا بين جنود هذا الجيش اللجب.

وبعد مفاوضات فاشلة تهيأ الجيشان للمعركة في ميدان "قوصوة" ونظراً لان الجيش الصليبي سبق الجيش العثماني في الوصول الى هذا الميدان فانه احتل افضل التلال المشرفة على الميدان وحقق بذلك نقطة ايجابية لصالحه.

في الليلة التي سبقت المعركة رفع السلطان مراد يديه نحو السماء بدعاء جهري ذكره المؤرخون جاء فيه:

(يارب!... بحرمة نبيك الكريم (صلى الله عليه وسلم) ، وبحرمة العيون الدامعة خشية منك ، وبحرمة الوجوه المتولهة بعشقك...).

و(اعن بنصرك اهل الاسلام ، وتجاوز عن اخطائنا يارب ، ولا تشتت المجاهدين في سبيلك ، ولا تسود وجوهنا بين الناس ، واجعلني فداءً للدين ، وارزقني الشهادة يارب).

في صباح اليوم التالي اي في ١٥/ حزيران/ ١٣٨٩م التحم الجيشان ، وكان السلطان مراد وابنه وولي عهده "بايزيد" مع جميع وزرائه وقادته بايديهم السيوف يقاتلون جنباً الى جنب مع الجنود ، وقد ابدى ولي العهد خاصه شجاعة فائقة في هذه المعركة ، فكان ذلك برهاناً على صدق اللقب الذي لقب به سنة ١٣٨٦ وهو لقب "الصاعقة" ، اذ كان ينزل كالصاعقة على الاعداء.

انتهت معركة "قوصوة" في مساء ذلك اليوم بانهزام الجيش الصليبي وبمقتل قائده الملك "لازار" وبانتصار المسلمين انتصاراً ساحقاً ، وتعد هذه المعركة احدى المعارك التاريخية المهمة في تاريخ الحروب.

وفي صباح اليوم التالي خرج السلطان تجف به معيته من الوزراء والقواد ، وبدأ يتجول في ميدان المعركة... كانت الجثث من كلا الطرفين تملأ الميدان ، وبدأ يتفقد الجرحى ويأمر بنقلهم ومداواتهم ، وفي اثناء تفقده هذا تقدم اليه احد القواد وقال له:

- يامولاي... هناك بين الجرحى نبيل من نبلاء الصرب يرغب في رؤيتك لانه يريد ان يشهر اسلامه بين يديك.

- اين هو؟

٣٧